



لمحات آباءية وكتابية من صلواتنا القبطية

- ١ -

العَيْنُ الْمُسْتَنِيرَةُ وَالنَّفْسُ الْمُسْتَنِيرَةُ

دكتور

جورج حبيب بياوي

نوفمبر ٢٠١٢

في صلواتنا القبطية ابتداءً من المعمودية المقدسة، وانتهاءً بشركة جسد ودم الرب يسوع، نسمع عن العين المستنيرة والنفس المستنيرة. وهي طلبية تأتي من بعض صلوات القسمة، حيث يقول الكاهن: "لكي بقلبٍ طاهرٍ، ونفسٍ مستنيرةٍ، ووجهٍ غير مخزي ... نجسر بدالة (بشجاعة) بغير خوف أن ندعوك يا الله الآب القدوس ...".

وفي اسبوع البصحة، بعد قراءة العظة المدونة في القطمارس، يحتم القارئ بقوله: "فلنختم عظة أينا ... الذي أثار عقولنا وعيون قلوبنا باسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد آمين".

ولعل مَنْ يتابع صلوات الكنيسة، يلاحظ أن هذه الصلوات تذكر إشراق نور القيامة في نبوات العهد القديم، كنبوة أشعيا (أش ٦٠: ١ - ٨): "استنيري .. يا أورشليم لأنه قد جاء نورك ومجد الرب أشرق عليك"، إضافةً إلى باقي النبوات مثل حبقوق ٣: ٢ - ١٩، زكريا ٢: ١ - ١٢، ثم اشعيا ٤٩: ٦ - ١١).

ولا بُد لمن اشترك في قداس عيد القيامة أن لاحظ الطرح بعد إنجيل القداس:

"نور نور يا جبل الزيتون مجمع الأحياء

أضيئوا ونوروا أيها الرسل الأطهار

فإنه قد أشرق نور القيامة

المسيح مخلصنا قام من الأموات ...".

ويرتفع الأداء الروحي السماوي، فيصل إلى قمته في قسمة للابن في عيد
القيامة:

"ونحن الجلوس في الظلمة زماناً،

أنعم علينا بنور قيامته من قبل تجسده الطاهر ..

فليضيء علينا نور معرفتك الحقيقية ..

لنضيء بشكلك المحيي".

وفي صلاة القسمة للآب سنوي:

"اللهم والد النور .. ورئيس الحياة .. واهب المعرفة ..

الذي أضعدنا من العمق إلى النور ..

الذي أعطانا الحياة من الموت ..

الذي جعل ظلمة الضلالة التي فينا،

تضيء من قبل إتيان ابنك الوحيد بالجسد ..

أنت الآن يا سيدنا أنر عيون قلوبنا.

وطهّرنا كاملين في النفس والجسد والروح".

ونلاحظ أن الاستنارة، وإنارة عين النفس أو عين القلب - كما سنرى بعد

ذلك - هي أحد مكونات سر المعمودية.

إذا عدنا إلى قصة الخلق في سفر التكوين، نجد أن النور هو أول ما خلقه الله في

اليوم الثالث، ولم يكن خلق الشمس مصادفةً، بل بداية الحياة (تك ١ : ١٤)، فالله هو

خالق النور (أش ٤٥ : ٧ - ارميا ٣١ : ٣٥ - سيراخ ٤٣ : ١)، بل إن الله يلبس النور

مثل ثوب (مزومر ١٠٤ : ٢). وعند حلول واستعلان الله، يظهر النور (خروج ١٣ : ٢١

- نحميا ٩ : ١٢)؛ لأن النور هو استعلان الحضور الإلهي (حبقوق ٣ : ٤)، ولذلك يقول

المزمور: "الرب هو نوري وخالصي من الذي أخاف؟" (مز ٢٧ : ١).

وفي العهد الجديد نجد أن النور شغل ٧٢ آية، منها ٣٣ منها في إنجيل ورسائل

القدّيس يوحنا وحده. وبالرغم من ذلك لم يدرك شهود يهوه أن استعلان الرب يسوع

على جبل التجلي بنور أكثر لمعان من الشمس، هو استعلان يهوه نفسه (متى ١٧ : ٢)،

كما ظل إشراق النور يلازم حضور الرب يسوع، وعلى سبيل المثال عندما ظهر لشاول (أع ٩ : ٣).

والتلمذة ليسوع تجعل تلاميذ يسوع أنوار العالم، أو "نور العالم" (متى ٥ : ١٤ - لوقا ١٢ : ٣٥)، وهو ما يؤكد القديس بولس بعد ذلك، رغم أنه لم يكن من الاثني عشر؛ لأن نور المسيح هو السمة التي تميّز التلميذ (أفسس ٥ : ٨)، "لأنكم كنتم قبلاً ظلمة أمّا الآن فنور في الرب ..". وفي فيلبي ٢ : ١٥ : "لكي تكونوا بلا لوم وبسطاء أولاد الله بلا عيب .. تضيئون بينهم كأنوار في العالم". وحتى تعليم الرب الذي يُقال للتلاميذ يجب أن يعلن جهاراً: "الذي أقوله لكم في الظلمة قولوه في النور والذي تسمعونه في الأذن نادوا به من على السطوح" (متى ١٠ : ٢٧ - ٢٨ - لوقا ١٢ : ٣).

المسيح نور العالم، أي نور الخليفة (يو ٨ : ١٢ - ٩ : ٥):

لعل افتتاحية إنجيل يوحنا هي محور الإنجيل؛ لأن يسوع هو النور (١ : ٤ - ٨ : ١٢)، فهو "النور الحقيقي الذي ينير" (١ : ٩).
ويجب أن نلاحظ أن استخدام "أنا هو" في صيغة محددة، تشير إلى أفنوم الكلمة ابن الله، فهي تحدد بشكل واضح يفضح ضحالة تعليم الشيطان عند شهود يهوه .. أنا هو نور العالم ، من يتبعني فلا يمسي في الظلمة، بل يكون له نور الحياة" (راجع ٨ : ١٢ - ٩ : ٥ - ١٢ : ٤٦).

لقد جاء الرب لكي ينير فكر الانسانية وحياتها بمعرفة حقيقية، كما تقول صلواتنا السابقة، وتأكيداً لتجسد ابن الله تذكّرنا إِبصالية الأحد بأن القديسة مريم هي: "المنارة الذهب المصنوعة بأياد ذهبية"، أي أياد إلهية، فهي المنارة ذات الشُّرج السبعة" تلك التي كانت في خيمة الاجتماع، ولذلك تقول ثيوطوكية الأحد:

"أنت المنارة الذهب النقي،

الحاملة المصباح المنير كل حين،

الذي هو نور العالم غير المقترب إليه،

الذي من النور غير المبدئي منه،

الإله الحق من الإله الحق" (القطعة الخامسة).
 ولعل هذه الكلمات كانت قد سبقت عبارات قانون الايمان:
 "نورٌ من نور، إلهٌ حق من إلهٍ حق".
 فهو الذي:

"بظهوره أضاء علينا،
 نحن الجلوس في الظلمة وظلال الموت،
 وقومٌ أرحلنا إلى طريق السلام بشركة اسراره المقدسة" (المرجع السابق).
 فالسرائر كما سنرى هي أيضاً حاملة النور الالهي:
 "الذي في بطنك يا مريم العذراء
 أضاء لكل إنسان آت إلى العالم.
 لأنه شمس البر،
 ولدته وشفانا من خطايانا" (المرجع السابق).

لكن المنارة ليست العذراء وحدها؛ لأن أمومة مريم ليسوع رب المجد هي أمومة
 لكل الكنيسة، فهي الأم التي تجلس على رأس المائدة مع الملك – عن يمين الملك في
 وليمة الملك الإفحارستيا، ولذلك:

"شَبَّهوا المنارة الذهبية بالكنيسة،
 وشُرِّجها السبعة بالسبع طغمت^(١)".
 والاستنارة هي نورٌ إلهي، لذلك تقول إِبصالية الاثنين:
 "فليكن اسم الرب فينا
 ليضيء علينا في إنساننا الداخلي".
 لأن هذا الاسم يعطي عطية الفرح القلبي:
 "زينة نفوسنا وفرح قلوبنا
 هو اسمك القدوس يا ربي يسوع".

(١) طغمة كلمة يونانية – قبطية، ولا تعني رتبة كما في الجيوش، بل الجماعة التي تميَّزت بنعمة إلهية معينة تجعلها مميزة في الجسد الواحد الكنيسة.

فالتجسد هو إشراق نور معرفة الله الآب في ابنه، ولكنه ليس إشراقاً عقلياً، بل

هو:

"أشرق جسدياً من العذراء
بغير زرع بشر حتى خلصنا" (ثيوطوكية الاثنين).
وتأكيد استعلان النور الالهي بتجسد ابن الله، هو حسب ترتيب التجسد:
"الله نور وساكن في النور ...
النور أشرق من مريم ...
فقام داود ...
ومضى إلى البيعة بيت الملائكة،
فسبح ورتل للثالوث القدوس، قائلاً:
بنورك يا رب نعاين النور ..
أيها النور الحقيقي الذي يضيء لكل انسان آتياً إلى العالم ..
أشرق جسدياً من العذراء" (١).

نور من نور (قانون الايمان النيقاوي) واستنارة العين وعين القلب:

الاستنارة تعود أصلاً إلى استعلان الابن، فهو النور. ولعل ما يشبهه صلاة ليتورجية ورد في رسالة اكليمينضس الروماني:

"نصلي بجمرة وبطلبات خالق الكون أن يحفظ مختاربه في العالم كله
في فتاه المحبوب يسوع المسيح الذي به دعانا من الظلمة إلى النور، ومن
الجهل إلى معرفة مجد اسمه (يسوع). أعطنا يا رب أن يكون لنا رجاء في اسمك
الذي به تبقي الخليقة، وافتح عيون قلوبنا لكي نعرفك .." (٥٩: ٢ - ٣).

عندما سمعت لأول مرة في ١٩٥٧ ختام طرح قُراً في دير السريان العامر:

(١) الذي يلازم صلوات الكنيسة يعرف أن القطعة التاسعة من ثيوطوكية الاثنين تقال في صلاة باكر: "أيها النور الحقيقي ..."، وهي صلاة مبنية على انجيل يوحنا ١: ١ - ٣. راجع أيضاً ثيوطوكية الثلاثاء القطعة الخامسة، والقطعة السابعة من ثيوطوكية الأربعاء.

"لنختم عظة ... الذي أنار قلوبنا وعيون قلوبنا باسم الآب والابن والروح القدس (ترتيب أسبوع الآلام)، ثم وجدت ذات التعبير في رسالة اكليمينضس، أدركت أنني أمام تاريخ قديم متواصل مع الكتاب المقدس .. ودخل الصلوات.
الكلمة اللوغوس يعمل في إنارة كل الخليقة، فهو:

"مثل الشمس التي لا تنير السماء فقط، بل كل بقاع الأرض والبحر،
بل تدخل أشعة الشمس من الشباييك لكي تنشر النور في كل مكان من
المنزل، هكذا أيضاً الكلمة يسكب نوره في كل مكان لكي ينير كل أعمالنا
حتى الأصغر منها" (اكليمينضس الاسكندري المتنوعات ٧: ٣: ٢١).

الكلمة يسوع المسيح ابن الآب هو نور الآب، فهو كما يقول العلامة
أوريجينوس:

"الله نور (١ يو ١ : ٥)، وشعاع هذا النور هو الابن الوحيد المولود
من الآب بدون انفصال .. يعطي النور لكل الخليقة .. بالاستنارة يتكون
الفهم؛ لأننا - بالاستنارة - نعرف ما هو النور، فهو ينيرنا بوداعة؛ لأنه
يعرف أن عيوننا خاضعة للموت، ولذلك يدرّب هذه العيون، ويجعلها تتعود
على النور لكي تتحمل فيما بعد فيض النور الكامل. هو ينزع الغشاوة التي
تعطل الرؤيا، حسب القول "أخرج القذى من عينك" (لوقا ٦ : ٤٢) حتى
تتمكن هذه العيون من قبول بهاء النور .." (المبادئ ١ : ٢ - ٣).

استنارة العين والقلب هي عمل الابن الوحيد:

عندما استخدم الآباء عبارة "نور من نور" في قانون الايمان النيقاوي، لم يكن
هذا مجرد اعتراف بالوهية الرب والمخلص؛ لأن الاعتراف هو باب الحياة، باب الشركة،
بل النور وهو الآب، ومنه النور وهو الابن لا يؤكد فقط وحدانية جوهر الثالوث، بل هو
أساس خلاص البشر. (أثناسيوس ضد الأريوسيين ٢ : ٣٣ - باسيليوس الكبير، رسالة
٥٢ : ٢).

النور الإلهي في المعمودية المقدسة

وردت الإستنارة بصيغة المبني للمجهول في (عب ٦ : ٤) "الذين استُنبروا مرةً وذاقوا الموهبة السماوية وصاروا شركاء الروح القدس ..". وهو تعبير يؤكد أن خلف هذه الصياغة الدقيقة نجد سر المعمودية المقدسة؛ لأن الاستنارة (الموهبة السماوية)، وهي كما وردت في نص (عب ٦ : ٤) بصيغة المبني للمجهول، هي ليست تقدُّم الانسان الروحي، بل هي احتراق - إذا جاز التعبير - النور الإلهي حياة وقلب الإنسان؛ لأن التعليم الرسولي الذي ورد قبل نص (عب ٦ : ٤) هو:

"الله الذي قال أن يشرق نورٌ من الظلمة

هو الذي أشرق في قلوبنا لإنارة معرفة مجد الله في (أقنوم) وجه يسوع المسيح"

(٢ كو ٤ : ٦).

فالتعليم هو إشراق نور المسيح حسب تعبير رسول الرب: "حسب موهبة نعمة الله المعطاة لي حسب عمل قوته ... أعطيت هذه النعمة أن أُبشِّر بين الأمم بغنى المسيح الفائت (الذي لا يُستقصى) وأُنير الجميع في ما هو شركة السر الخفي (المكتوم غير المباح) .." (أفسس ٣ : ٧ - ٩).

ما هو هذا النور؟ يجيب تلميذ ورسول المسيح قائلاً إن ظهور مخلصنا يسوع المسيح "أبطل الموت وأنار الحياة والخلود بواسطة الخبر السار (الانجيل) الذي جعلت أنا له كارزاً ورسولاً ومعلماً للأمم .." (١ تيمو ١ : ١٠ - ١١). وقبول الايمان هو بدء الاستنارة، ولكن نوال الاستنارة هو في المعمودية، ولذلك يسمي الشهيد يوستينوس الذين قبلوا الايمان واستعدوا للمعمودية "بالمستنبرون" (الدفاع ١ : ٦١ : ٣١ - ١ : ٦٥). الحوار مع تريفو (٣٩ : ٢). وفي مقدمة رسالة الشهيد أغناطيوس الانطاكي إلى الرومانيين يصف المؤمنين بأنهم في كنيسة "المحبوبين والمستنبرين".

المعمودية هي الميلاد الثاني أو الجديد - كما يقول القديس ايريناوس: "هي ميلادٌ من الله وفيها نصبح أولاده" (التعليم الرسولي فقرة ١٢ - ضد الهرطقة ٣: ١٧ - (١).

ولذلك يسمي أكليمنضس السكندري المعمودية بأنها: "حميم الميلاد الجديد للخلاص والاستنارة" (رسالة إلى الوثنيين ١٠: ٩٤ - ٢), وما نجده في صلوات الكنيسة المصرية أم الشهداء من أسماء خاصة بالمعمودية هو ما نجده عند أكليمنضس السكندري الذي يصف المعمودية بأنها:

"يدعى هذا العمل نعمة $\chi\acute{\alpha}\rho\iota\sigma\mu\alpha$ واستنارة $\phi\acute{\omega}\tau\acute{\iota}\sigma\mu\alpha$

وكمال $\tau\acute{\epsilon}\lambda\epsilon\iota\omicron\nu$ وحميم $\lambda\omicron\upsilon\phi\acute{\upsilon}\nu$ " (المؤدّب ١: ٦ - ٢٦: ٢).

والاستنارة حسب التعليم الرسولي السابق هي "معرفة الله" (المؤدّب ١: ٦ - ٢٥: ١). وفي صياغة متينة لا تختلف عن صلوات المعمودية يقول أكليمنضس:

"عندما نعتمد نستنير، وعندما نستنير ننال التبني، وعندما ننال التبني

نُكَمَّل، أي أن ننال الحياة الأبدية" (المؤدّب ٨: ٦ - ٢٦: ١).

"المعمودية استنارة؛ لأننا ننال النور الذي يفتح عيوننا لقبول الرؤيا

الإلهية" (المؤدّب ١: ٦ - ٢٦: ٢).

والمستنير هو من قد ترك الظلمة وجاء إلى النور.

ومن الضروري ان نقف وقفة قصيرة مع صلوات كنيستنا الخاصة بالموعوظين:

"مبارك هو ابنك الوحيد يسوع المسيح ربنا

هذا الذي بواسطته دعوت كل الأمم من الظلمة إلى النور الحقيقي".

"من أجل عبده الذين قُدِّمَت أسماؤهم لكي يفتح مسامع قلوبهم،

ويضيء عليهم بنور المعرفة".

وبعد جحد الشيطان والاعتراف بالايمان:

"أيها السيد الرب الإله ضابط الكل أبو ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع

المسيح ... الذي أعطيت معرفتك للكائنين على الأرض ...

رَبِّهم على أساس إيمانك الرسولي.

وادعهم إلى نورك الطاهر.
 واجعلهم أهلاً لنعمتك العظيمة وجدد حياتهم".
 "أضيء عيون أفهامهم بنور المعرفة ..
 لكي يقبلوا روحك القدس وليستحقوا حميم الميلاد الجديد.
 واللباس غير الفاسد، وغفران الخطايا.
 إذ تعدّهم هيكلًا لروحك القدوس".
 والمعمودية حسب الصلوات هي:
 - "النور

- خاتم مسيحك

- موهبة روحك القدوس

- حلّة نورانية

- لباس الخلاص

- سلاح الإيمان"

كل هذا؛

"لكي يصير الذين نالوا هذا السر خرافاً ضمن قطيعك وبنيناً لخدرك

السماوي ووارثين لملكوتك غير الفاسد".

"افتح عيون قلوبهم ليستضيئوا بضياء إنجيل ملكوتك .. أبناء النور".

أصالة الصلوات ليس في القدم فقط، بل في أنها متواصلة مع الكتاب المقدس

نفسه ومع ما ذكره الآباء.

النور الإلهي في العهد القديم:

الاستنارة كان لها رمز هام في العهد القديم، وهو "المنارة ذات السُّرُج السبعة"

(عدد ٨: ٢ - خروج ٣٨: ١٣)، لكن النور هو "سبيل الصديقين، فكنور مشرق يتزايد

وينير إلى النهار الكامن" (أمثال ٤: ١٨). والتعليم له ركيزة ثابتة وهي وصايا الله؛ لأنها

أقوال الله: "عجيبة هي شهادتك لذلك حفظتها نفسي. فتح كلامك ينير عقل الجهال

(مزمو ١١٩ : ١٢٩ - ١٣٠)، بل كانت الشمس ذكرى لنور التعليم نفسه (مزمو ١٠٢ : ٣٩). وعندما يجيء النور الإلهي ويشرق من المسيح يقول اشعياء: "لا يكون لك بعد الشمس نوراً في النهار ولا القمر ينير لك" بل الرب يكون لك نوراً ابدياً، وإلهك هو زيتك" (اش ٦٠ : ١٩). ولكن هذا الوعد النبوي لم يكن هدفاً بعيداً، بل كان المزمور يؤكد: "لأنك أنت تضيء سراجي (النفس أو القلب) الرب ينير ظمتي" (١٨ : ٢٧)؛ لأن "عمى القلب" هو عمى العين، لذلك يقول المزمور: "الرب يفتح أو ينير أعين العمي" (١٤٥ : ٨).

ومعرفة الله عبّر عنها العهد القديم بإشراق وجه الله - ووجه الله هو التعبير العبراني "ب ن هـ"، وهو الذي صار في اليونانية *Prosopon* ومن هنا جاء التعبير "أضيء بوجهك على عبدك خلصني برحمتك" (مزمو ٣١ : ١٦). وفي ليتورجية الهيكل - كما نعرف من المشنا - كان رئيس الكهنة يقول: "ليترأف علينا وليباركنا وينير أو يشرق بوجهه علينا" (مز ٦٧ : ١) وجاءت الصيغة كاملة:

"هكذا تباركون بني إسرائيل قائلين لهم:

يباركك الرب ويجرسك

يضيء الرب بوجهه عليك ويرحمك

يرفع الرب وجهه عليك ويمنحك سلاماً" (عدد ٦ : ٢٢ - ٢٥)

ويعطي الرب يسوع أضواء الرب الإله علينا بوجهه (٢ كو ٤ : ٦). النور هو "أور" في العبرانية، وهو حسب السبعينية، هو التعليم (قضاة ١٣ : ٨ - ٢ ملوك ١٢ : ٣)، ومن الله يلمس المصلي نور الله، أي الله نفسه "الرب نوري وخلصي" (٢٧ : ١). خلاصة العهد القديم تجدها في افتتاحية إنجيل يوحنا، وهي نص جميل يضع بشارة الحياة على أساسها النبوي، وعلى عملها في الاستعلان: "هذا هو الخبر الذي سمعته منه (يسوع) ونخبركم ان الله نور وليس فيه ظلمة البتة (مطلقاً)" (١ يو ١ : ٥).

الاستنارة في السرائر:

من الكلمات اللاهوتية الهامة هو تعبير "المستنيرين" الذين "أنارهم المسيح"

(الشهيد يوستينوس حوار مع تريفو ٣٩: ٢ - ١٢٢: ٢٥).

والاستنارة في المعمودية هي حميم الميلاد الجديد؛ لأن النفس والجسد كلاهما هنا في وحدة غير قابلة للانفصال، رغم الانفصال المؤقت الذي يتم بالموت البيولوجي، وهو غير موت الخطية؛ لأنه يؤهلنا - أي الموت البيولوجي - للقيامة وكمال الاتحاد بالمسيح. ولذلك يؤكد العلامة أوريجينوس أن الميلاد الجديد هو "اغتسال التجديد"؛ لأن الميلاد الجديد هو بداية ميلاد آخر" (مقالة الفصح وحوار مع هيراقليطس^(١) ص ٢٩ - Ancient Christian Writers). فالميلاد الجديد هو الذي يجعل المولود الجديد يطلب اللبن العقلي (١ بطرس ٢: ٢) " (أوريجينوس شرح إنجيل متى ١٣: ٢٧)، وطقسنا القبطي لا يختلف عن الترتيب السائد في القرن الثاني والثالث حسب شهادة العلامة أوريجينوس؛ لأنه بعد المعمودية "يذهب من نال المعمودية إلى وليمة العرس لكي يأكل من جسد الحمل ويشرب من كأس الخلاص" (عظة على سفر الخروج ١١: ٢٧).

في مجلد ٢٨ من مجموعة الآباء اليونانيين P.G. عامود ١٨٥ يوجد نص تحت عنوان "الفصح المقدس" وهو نصٌ ذو دلالة طقسية هامة وضعه الأب يعقوب ميني ضمن مؤلفات القديس أنثاسيوس، ولا يوجد ما يدعو إلى الشك في ذلك. يقول المعلم الكبير:

"في هذه النعم قد اعتمدتم يا من استترتم الآن. لقد دخلتم إلى سر الانضمام إلى النعمة يا من استترتم حديثاً، فصارت هذه النعمة هي ضمان القيامة؛ لأن المعمودية هي عربون الحياة في السماء. عندما تم تغطيسكم تشبَّهتم بدفن السيد، ولكن أنتم قمتم لكي تعابوا قوى القيامة".

الاستنارة تحدث بالشركة في موت الرب وقيامته، هي معرفة قوة القيامة التي تحققت أولاً بقيامة المسيح والتي تعطي الآن سر المعمودية.

لاحظ نفس التعبيرات في صلوات المعمودية وصلوات الأسقف سراييون صديق

القديس أنثاسيوس:

(١) نلفت النظر إلى أننا قد نشرنا ترجمة عربية لهذا الحوار في كتابنا التمييز بين العقيدة والمهرطقة والرأي، المنشور على

سراييون	الطقس القبطي
تطلع يا رب إلى هذه المياه واملاها بالروح القدس، وليحل اللوغوس الفائق فيها لكي يحول قوة هذه المياه لكي تصير مياه خالقة مملوءة من نعمتك .. حتى أن الذين يولدون من جديد يمتثلون من النعمة الالهية عند نزولهم إلى هذه المياه لكي يعتمدوا فيها .. لكي يولدوا من جديد حسب صورتك الإلهية الفائقة حتى أنهم إذا تحولوا ووُلِدوا من جديد ينالوا الخلاص ويستحقوا ملكوتك.	يا جابل المياه وخالق الكل. ندعو قوتك الطاهرة الذاتية، الاسم الذي يفوق كل الأسماء .. نسألك يا ملكنا عن عبيدك: انقلهم وابدهم قدسهم وقوهم قدس هذا الماء وهذا الزيت ليكون لحميم الميلاد الجديد .. لأن ابنك الوحيد .. نزل إلى مياه الأردن وقَدَّسه قائلاً إن لم يولد أحد من الماء والروح .. لكي بهذه المياه وبروح قدسك تجدد ميلاد عبيدك الذين تقدموا إليك بقوتك الإلهية.
لأن كلمتك الذاتي نزل إلى مياه الأردن وقدسهم. هكذا لينزل الآن على هذه المياه ويجعلها مياه مقدسة روحية لكي لا يصبح الذين يعتمدون جسداً ودماً، بل روحاً، ويستحقوا أن يخدموك.	

وفي بردية برلين رقم ١٣٤١٥ المعروفة باسم Berolinis نشر النص القبطي

Theodor Schermann مع ترجمة المانية تقول الصلاة:

"أترنا بتعليمك لكي نستحق أن نعرف التعليم الرسولي الذي علّمه الرسل

القديسين، ولكي نعرف تعليم أناجيل مخلصنا يسوع المسيح".

فمن هذه الصلوات نعرف أن الاستنارة هي عمل الابن والروح القدس فينا.

الحميم λουτρόν

وردت هذه الكلمة بكثافة في صلواتنا القبطية. وفي كتابات أكليمنضس

وأوريجينوس، الكلمة هي تفيد الاغتسال. تُعد عظام القديس كيرلس الأورشليمي هي أوفر مصدر آبائي، ووصف المعمودية فيها هو وصف دقيق، ليس للمعمودية وحدها، بل لما نتدوقه في ليتورجية الإفخارستيا؛ لأن الحقيقة الواحدة هي اشتراك كل الأسرار في حياة وموت وقيامة الرب يسوع. يقول كيرلس:

"عظيمة هي المعمودية التي سوف تقبلونها،

هي فداء الأسرى - غفران الخطايا - موت الخطية - ميلاداً جديداً للنفس -

ثوب النور - ختم لا ينحل - مركبة للسماء - فرح الفردوس - قبول في

الملوكوت - عظمة التبني (عظة ١٦).

"الاغتسال هو تطهير النفس والجسد، المياه تقُدس الجسد والروح القدس يختم النفس (٣: ٤ عظام الموعوظين - القديس كيرلس الأورشليمي)، والاغتسال هو غفران الخطايا (٣: ٢ المرجع السابق)، وهو ما يؤكدُه قانون الايمان:

"معمودية واحدة لمغفرة الخطايا".

في الحميم تخلع النفس ما هو لآدم الأول، ولكن حسب الشرح المسهب للقديس يوحنا ذهبي الفم (عظام للموعوظين، نشر النص Paul W. Harkins مجلد ٣١ من سلسلة Ancient Christian Writers): خلع القلدتم يعني لبس الجديد وثياب عدم الفساد هي ثياب القيامة، هو "ثوب النور"، وهو كما يقول ذهبي الفم:

"الذين يأتون إلى المغطس يعرفون الثوب الملوكي، وهم في قرار واحد

لا تغيير فيه يلبسون المسيح وصاروا أهلاً لأن يحل فيهم المسيح ... والآل

ثوبكم الذي تلبسونه وملابسكم اللامعة هي مصدر انتباه الجميع، وهي التي

قال عنها المسيح: "ليضيء نوركم قدام الناس ..."، هذا النور لا يفقد قوته

عند معاينته بالحواس الجسدانية؛ لأنه ينير النفس والفهم لكل من يقبله ويراه

لأن هذا النور هو الذي يطرد الظلمة" (العظة ٤: ١٧ - ١٩).

الحميم والاستنارة:

التعليم قدم جداً حسب شهادة الشهيد يوستينوس؛ لأنه بعد الصوم والاستعداد بالصلاة "نجيء بالذين يرغبون في المعمودية إلى الماء لكي يولدوا من جديد، وهو نفس الميلاد الجديد الذي وُلدنا نحن فيه، وهؤلاء يغتسلون في الماء باسم الله الآب خالق الكل ومخلصنا يسوع المسيح والروح القدس؛ لأن المسيح نفسه قال: "إن لم تولد من الماء والروح لن تدخل ملكوت السموات" (يوحنا ٣: ٢٥)، وهذا معلوم الآن؛ لأن كل الذين جاءوا إلى هذه الحياة ونالوا الوجود لا يمكن أن يعودوا من جديد إلى بطون أمهاتهم... ميلادنا الأول هو ضرورة ويحدث بدون معرفتنا... ولكن اغتسالنا يسمى استنارة؛ لأن الذين تعلموا التعليم قد استنارت عقولهم، ومن يستنير هو الذي اغتسل باسم يسوع المسيح... " (الدفاع الأول ٦١).

ونسمع نفس التعليم تقريباً بنفس الكلمات بعد ما يزيد على ٢٥٠ سنة تفصل بين يوستينوس الشهيد وذهي الفم، فهو يعظ الذين استعدوا للمعمودية:

"إذا أردتم أن تسمعوا، ها هي أسماء هذا التطهير السري *mystic*

لأن هذا التطهير له أسماء عديدة ويُوصف بعدة طرق هو يدعى "حميم الميلاد الجديد كما يقول بولس" الذي يخلصنا بحميم الميلاد الجديد وتجديد الروح القدس (تيطس ٣: ٢٥)، ويسمى استنارة - ومرة ثانية أعطى بولس هذا الاسم لهذا الاغتسال "ولكن تذكروا الأيام السالفة التي فيها بعد ما أنزتم صيرتم على مجاهدة آلام كثيرة" (عب ١: ٣٢)، وأيضاً "لأن الذين استنبروا مرة وذاقوا الموهبة السماوية وصاروا شركاء الروح القدس.. (عب ٦: ٤ - ٦)، ويدعى "معمودية"؛ لأن "جميعكم الذين اعتمدتم للمسيح لبستم المسيح" (غلا ٣: ٢٧)، ويدعى "دفن"؛ لأننا دفنا معه في المعمودية كما يقول بولس (رو ٦: ٤) " (تعليم الموعوظين ٩: ٢١).

العين المستنيرة:

يقول الرب يسوع: "سراج الجسد هو العين، فإذا كانت عينك سليمة (بسيطة)

فجسدك كله يكون نيراً" (متى ٦: ٢٢). العين السليمة أو البسيطة هي التي ليس لها رؤيا مزدوجة مشتتة، ولذلك تقوم العين في النفس أو القلب مقام الرؤيا الروحية الداخلية. والعيون التي عميت أو حرفياً أغلقت (متى ١٣: ١٥) تعني انغلاق الفهم أو الإدراك. وعندما يقول الرب: "هل لكم عيون ولا تبصرون ولكم آذان ولا تسمعون ولا تذكرون" (مرقس ٨: ١٨)، فالكلمات تجدد صداها في صلوات المعمودية: "افتح عيونهم" أو "افتح مسامع قلوبهم"؛ لأن هذا هو عمل الروح القدس. وعندما يقول الرسول: "خوف الله ليس امام عيونهم" (رو ٣: ١٨)، فهو يقصد الإدراك المصاب بالعجز، وهو ما يردده أشعياء وعنه ينقل رسول الرب عن "العيون التي لا تبصر" (رو ١١: ٨)، ولذلك يصلي الرسول بولس: "يعطيكم إله ربنا يسوع المسيح أبو المجد روح الحكمة والإعلان في معرفته مستنيرة عيون قلوبكم (حسب القبطي واليوناني)، لتعلموا ما هو رجاء دعوته وما هو غنى مجد ميراثه في القديسين .." (متى ١: ١٧ - ١٨) وإذا عدنا إلى شرح رسالة أفسس للعلامة أوريجينوس وجدنا أنه أعاد ترتيب كلمات الرسول بولس حتى يظهر المعنى جيداً. وهكذا أعاد أوريجينوس النص:

"أعتقد أن سياق النص وقواعد الإعراب مع مراعاة المحتوى نفسه تجعلنا نقرأ النص: لذلك السبب أنا نفسي، عندما سمعت بإيمانكم بالرب يسوع ومعرفته؛ لأن عيون قلوبكم قد استنارت". ودعى "عيون قلوبكم"، فهذه هي أعضاءنا التي يمكن أن نفهمها، أي قوى الإدراك والعقل تابعين في ذلك عبارة المزمو، وهي تؤكد ما نقول: "أنر عيني لئلا أنام نوم الموت" (مز ١٢: ٤). وفي موضع آخر: "الحكيم له عينين في رأسه" (الجامعة ٢: ١٢) (شرح أفسس تحقيق Ronald E. Heine جامعة أوكسفورد ٢٠٠٢ ص ١٠٨).

يجب أن نلاحظ تعبيرات الرسول:

- روح الاستعلان هو روح الرؤيا $\alpha\pi\omicron\kappa\alpha\lambda\acute{\upsilon}\psi\epsilon\omega\varsigma$ ورد أيضاً في (١ كو ١٤:

٦، ٢٦، ٣٠).

- عيون القلوب ورد في رسالة اكليمينضس (٢: ٣٦).

العين المستنيرة نالت النور في المعمودية ومسحة الميرون:

هذا التحول في كيان الانسان لكي يرى بالنور الإلهي، وهو نور المعرفة نور الله نفسه هو ما يُوهب في المعمودية ومسحة الميرون، ولكن في الإفخارستيا يقف المؤمن في حضرة الثالوث لأنه نال قوة القيامة. ونداء الشمس للشعب هو نداء عن ذات القيامة **СТАΘΗΤΕ** رافعاً الصليب، لا سيما وأن أوشية الإنجيل هي أوشية قبول الاستنارة: "طوبى لعيونكم لأنها تبصر"، مؤكدةً: "افتح آذان قلوبنا لكي نسمع أناجيلك المقدسة"، وهو ما يجعل الكاهن يقول: "الآن يا سيد تطلق عبدك بسلام ... نور إعلان للأمم". وقبول بشارة الإنجيل هو تقديم صعيدة البركة: "مجداً وعظماً بهاء في قدسك"، هو "مجداً وإكراماً للثالوث"؛ لأن البهاء هو إشراق مجد الله. ولاحظ تمجيد الثالوث بعد رشومات الحمل: "واحد هو الأب القدوس .."، لكن الجدير بالاهتمام هو التعبير العبراني الأرامي القديم جداً عن إشراق الأقبوس: "أظهر وجهك على هذا الخبز"؛ لكي تأتي صلوات المعمودية السابقة عن تحول كيان الموعوظ:

"أضيء عيون أفهامهم بنور المعرفة،

انقلهم

ابدلهم

قدسهم

وقوهم

افتح أعين

قلوبهم ليستضيئوا بضياء إنجيل ملكوتك".

واستدعاء الأقبوس بالشكل القديم جداً، ليس فقط "أظهر وجهك"، بل "اطلع أيها الجالس على الشاروبيم اظهر وانظر إلى جبلتك هذه، أي هذا الماء. امنحه نعمة الأردن". فالأساس اللاهوتي واحد: "أظهر وجهك على هذا الخبز وعلى هذه الكأس: باركهما - قدسهما - طهرهما وانقلهما لكي يصير هذا الخبز جسداً المقدس ..".

استعلان الثالوث بواسطة الابن هو استنارة العقل أو القلب أو الإدراك: "أظهرت

لنا سر إنجيل مجد مسيحك".

وحسب ترتيب التدبير: هدم الله الموت "بالظهور الحبيبي الذي لابنك الوحيد"، ولذلك الشعب يرتل: "تعال إلينا يا سيدنا المسيح وأضيء علينا بلاهوتك الفائق (العالي) أرسل علينا هذه النعمة العظيمة التي لروحك القدوس" (راجع حولاجي الدير المحرق ص ٢٤٧ - ٢٤٨).

وعودةً إلى الوجود في الثالث حسب الصلوات والتسايح التي نشترك فيها مع القوات السماوية: "قدوس قدوس رب الصباؤوت .."، وباليتنا نعود إلى التراتيل الفخمة (حولاجي الدير المحرق ص ٢٥٤ - ٢٥٨)، لكن يظهر ترتيب التدبير في ظهور الابن الوحيد "نحن الجالسون في الظلمة وظلال الموت"، وهو الظهور، أي التجسد، ثم "وأنعم لنا بالميلاد الذي من فوق من الماء والروح .. وصيرنا أطهاراً بروحك القدوس"، فالمعمودية تسبق الشركة في الإفخارستيا، ولذلك المولود من فوق يستنير بالميلاد وبنور الروح القدس لكي بهذه النعمة يؤهل للاشتراك في جسد الرب.

النفس المستنيرة:

كانت هذه المسيرة الطويلة مع نعمة الاستنارة في المعمودية؛ لأن النفس التي استنارت هي التي بالنور الإلهي تفهم السر حسب الاستعلان المعطى من الروح القدس؛ لأن الروح القدس هو الذي يُظهر هذا السر "قدساً للقديسين"، أي ينبوع التقديس للذين اتحدوا بالمسيح واستناروا به.

اعتذر للقراء الكرام على هذه المسيرة الطويلة ولكنها كانت ضرورية؛ لأن الإيقاع الموسيقي الإلهي هو:

النور الإلهي يشرق في الابن، ويعطي بالروح القدس في المعمودية. النفس تستنير، وتدخل المعرفة الإلهية الكيان الإنساني في المعمودية، تدخل إلى شركة الجسد والدم لكي تبقى الاستنارة، وهكذا تفهم النفس عظمة وجمال السر الإلهي والعطاء الفائق.

د. جورج حبيب بباوي